كان أو جلدًا أو غيرهما. قال:

ومسد أمر من أيانق

ورجل ممسود الخلق مجدوله. والمعنى: في جيدها حبل مما مسد من الحبال وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون، تخسيسًا لحالها وتحقيرًا لها وتصويرًا لها بصورة بعض الحطابات من المواهن، لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها وهما في بيت العز والشرف وفي منصب الثروة والجدة. ولقد غير بعض الناس الفضل بن العباس ابن عتبة ابن أبي لهب بحمالة الحطب فقال:

ماذا أردت إلى شتمي ومنقصتي ... أمّ ما تعير من حمالة الحطب

غراء شابحة[1] في المجد غرتها ... كانت سليلة شيخ ناقب الحسب

ويحتمل أن يكون المعنى أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع، وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الإخلاص مكية

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾.

﴿هو﴾ ضمير الشأن و﴿الله أحد﴾ هو الشأن. كقولك: هو زيد منطلق: كأنه قيل: الشأن هذا وهو أنّ الله واحد لا ثاني له.

فإن قُلْتَ: ما محل هو؟ **قُلْتُ:** الرفع على الابتداء، والخبر الجملة.

فإن قُلْتَ: فالجملة الواقعة خبر الأبد فيها من راجع إلى المبتدأ فأين الراجع! **قُلْتُ:** حكم هذه الجملة حكم المفرد في قولك: زيد غلامك في أنه هو المبتدأ في المعنى. ولذلك أنّ قوله: الله أحد هو الشأن الذي هو عبارة عنه وليس كذلك زيد أبوه منطلق، فإنّ زيدًا والجملة يدلان على معنيين مختلفين فلا بد مما يصل بينهما. وعن ابن عباس: قالت قريش: يا محمد صف لنا ربك الذي تدعونا إليه فنزلت، يعني: الذي سألتموني وصفه هو الله واحد، بدل من قوله الله أو على هو أحد وهو بمعنى واحد وأصله وحد. وقرأ عبد الله وأبيّ: هو الله أحد بغير قل. وفي قراءة النبي ﷺ: «الله أحد بغير قل هو». وقال: «مَن قرأ الله أحد كان بعدل القرآن». وقرأ الأعمش: قل هو الله الواحد. وقرئ: أحد الله بغير تنوين أسقط لملاقاته لام التعريف ونحوه، ولا ذاكرًا لله إلا قليلاً. والجيد هو التنوين وكسره لالتقاء الساكنين.

ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾.

﴿الصمد﴾ فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج. والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتقرون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها، وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه وهو الغني عنهم.

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾.

﴿لم يلد﴾ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا. وقد دل على هذا المعنى بقوله أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة. ﴿ولم يولد﴾ لأنّ كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أوّل لوجوده وليس بجسم. ولم يكافئه أحد أي: لم يماثله ولم يشاكله، ويجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح نفيًا للصاحبة. سألوه أن يصفه لهم فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته فقوله: هو الله، إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفاطرها، وفي طيّ ذلك وصفه بأنه قادر عالم؛ لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم لكونه واقعًا على غاية إحكام واتساق وانتظام. وفي ذلك وصفه بأنه حي سميع بصير. وقوله: أحد، وصف بالوحدانية ونفي الشركاء. وقوله: الصمد، وصف بأنه ليس إلا محتاجًا إليه وإذا لم يكن إلا محتاجًا إليه فهو غني، وفي كونه غنيًا مع كونه عالمًا أنه عدل غير فاعل للقبائح لعلمه بقبح القبيح وعلمه بغناه عنه. وقوله: لم يولد وصف بالقدم والأوّلية. وقوله: لم يلد، نفي للشبه والمجانسة. وقوله: ولم يكن له كفوًا أحد، تقرير لذلك وبت للحكم به.

فإن قُلْتَ: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم، وقد قص سيبويه على ذلك[3] في كتابه فما باله مقدّمًا في أفصح كلام وأعربه؟ **قُلْتُ:** هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أهم شيء وأعناه وأحقه بالتقدم وأحراه.

وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾.

وقرئ: كفؤًا بضم الكاف والفاء، وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء.

فإن قُلْتَ: لم كانت هذه السورة عدل القرآن كله على

(1) شابحة: أي شدخت شدوخًا اتسعت في الوجه.

(2) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 328.

(3) ذكره ابن حجر في لسان الميزان (6/442) وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (8915).

قصر متنها وتقارب طرفيها! **قُلْتُ**: لأمر ما يسود، من يسودّ. وما ذاك إلا لاحتوائها على صفات الله تعالى وعدله وتوحيده وكفى دليلاً من اعترف بفضلها. وصدق بقول رسول الله ﷺ فيها أنّ علم التوحيد من الله تعالى بمكان، وكيف لا يكون كذلك والعلم تابع للمعلوم يشرف بشرفه ويتضيع بضيعه، ومعلوم هذا العلم هو الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز. فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله وإنافته على كل علم واستيلائه على قصب السبق دونه، ومن ازدراه فلضعف علمه بمعلومه وقلة تعظيمه له وخلو من خشيته وبعده من النظر لعاقبته. اللهم احشرنا في زمرة العالمين بك العاملين لك القائلين بعدلك وتوحيدك الخائفين من وعيدك. وتسمى: سورة الأساس لاشتمالها على أصول الدين. وروى أبيّ وأنس عن النبي ﷺ: «أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد»[1]. يعني: ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله ومعرفة صفاته التي نطقت بها هذه السورة. عن رسول الله ﷺ أنه سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد فقال: «وجبت». قيل: يا رسول الله وما وجبت؟ قال: «وجبت له الجنة»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الفلق مختلف فيها

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾.

الفلق والفرق الصبح لأنّ الليل يفلق عنه، ويفرق فعل بمعنى مفعول. يقال في المثل هو أبين من فلق الصبح، ومن فرق الصبح. ومنه قولهم: سطع الفرقان، إذا طلع الفجر. وقيل: هو كل ما يفلقه الله كالأرض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأولاد والحب والنوى وغير ذلك. وقيل: هو وادٍ في جهنم أوجب فيها. من قولهم: لما اطمأنّ من الأرض الفلق، والجمع فلقان. وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دور أهل الذمّة وماهم فيه من خفض العيش وما وسع عليهم من دنياهم. فقال: لا أبالي أليس من ورائهم الفلق. فقيل: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدّة حرّه.

مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾.

﴿من شر ما خلق﴾ من شر خلقه وشرهم، ما يفعله المكلفون[3] من الحيوان من المعاصي والمآثم ومضارّة بعضهم بعضًا من ظلم وبغي وقتل وضرب وشتم وغير ذلك. وما يفعله غير المكلفين منه من الأكل والنهس واللدغ والعض كالسباع والحشرات، وما وضعه الله في الموات من أنواع الضرر كالإحراق في النار والقتل في السم.

وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾.

والغاسق الليل إذا اعتكر ظلامه، من قوله تعالى: ﴿إلى غسق الليل﴾[4] ومنه غسقت العين امتلأت دمعًا، وغسقت الجراحة امتلأت دمًا. ووقوبه دخول ظلامه في كل شيء. ويقال: وقبت الشمس إذا غابت. وفي الحديث: لما رأى الشمس قد وقبت قال: «هذا حين حلها». يعني صلاة المغرب[5]. وقيل: هو القمر إذا امتلأ. وعن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأشار إلى القمر فقال: «تعوّذي بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب»[6]. ووقوبه دخوله في الكسوف واسوداده. ويجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات، ووقبه ضربه ونقبه، والوقب النقب. ومنه وقبة الثريد والتعوّذ من شر الليل لأنّ انبثاثه فيه أكثر، والتحرّز منه أصعب. ومنه قولهم: الليل أخفى للويل. وقولهم: أغدر الليل، لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر. وأسند الشر إليه لملابسته له من حدوثه فيه.

وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾.

﴿النفاثات﴾ النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقدًا في خيوط وينفثن عليها[7] ويرقين، والنفث النفخ مع ريق، ولا تأثير لذلك اللهم إلا إذا كان ثم

---

(1) قال أحمد: نقل سيبويه أنه سمع بعض الجفاة من العرب يقرأ: ولم يكن أحد كفواً له، وجرى هذا الجلف على عادته، فجفا طبعه عن لطف المعنى لأجله اقتضى تقديم الظرف مع الخبر على الإسم، وذلك أنّ الغرض التي سيقت له الآية نفى المكافأة والمساواة عن ذات الله تعالى فكان تقديم المكافأة المقصود بأن يسلب عنه أولى، ثم لم قدّمت لتسلب نكر معها الظرف ليبين الذات المقدّسة بسلب المكافأة، والله أعلم.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الإخلاص (الحديث رقم: 2897)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: الفضل في قراءة: ﴿قل هو الله أحد﴾ (الحديث رقم: 994).

(3) قال أحمد: لا يسعه على قاعدته الفاسدة التي هي من جملة ما يدخل تحت هذه الاستعاذة إلا صرف الشر إلى ما يعتقده خالقاً = لأفعاله، أو لما هو غير فاعل له البتة كالموات، وأما صرف الاستعاذة إلى ما يفعله الله تعالى بعباده من أنواع المحن والبلايا وغير ذلك فلا؛ لأنه يعتقد أنّ الله لا يخلق أفعال الحيوانات، وإنما هم يخلقونها؟ لأنها شر والله تعالى لا يخلقه لقبحه، كل ذلك تفريع على قاعدة الصلاح والأصلح التي وضح فسادها حتى حرّف بعض القدرية الآية فقرأ: ﴿من شر ما خلق﴾ بتنوين وجعل ما نافية.

(4) سورة الإسراء، الآية: 78.

(5) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث، زيلعي 4/335.

(6) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المعوذتين (الحديث رقم: 3366).

(7) قال أحمد: وقد تقدّم أنّ قاعدة القدرية إنكار حقيقة السحر، على أنّ الكتاب والسنة قد وردا بوقوعه، والأمر بالتعوّذ منه، وقد سحر ﷺ=